العبيد في تاريخ المغرب
مساهمة في دراسة عبيد البوادي
ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر

د. هشام مرزوق

دكتوراه في التاريخ الحديث

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

تقرير عن أطروحة الدكتوراه، في التاريخ الحديث، التي نوقشت بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة ابن طفيل القنيطرة.

يوم الإثنين ٠٥ يونيو ٢٠٢٣.

الباحث:	هشام مرزوق
إشراف:	الأستاذة الدكتورة حفيظة الدازي
التخصص:	التاريخ الحديث
عدد الصفحات:	٣١٨ صفحة.
لجنة المناقشة:	الدكتور الطيب بياض
	الدكتور رحال بوبريك
	الدكتور عبد الإله الدحاني
	الدكتور محمد الغرايب
	الدكتورة مريم الحنصالي

يسعى هذا البحث الموسوم بـ "العبيد في تاريخ المغرب: مساهمة في دراسة عبيد البوادي ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر" إلى محاولة لمنح مساحة تحت الشمس لفصل من فصول التاريخ المنسي للهامش والمهمش بالمغرب الحديث، فإننا نطمح إلى إعادة موضوع العبودية إلى دائرة الاهتمام، من خلال البحث في الأدوار الاقتصادية والاجتماعية لفئة عبيد القرى بالمغرب ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلادي، الذين قبعوا في أسفل الهرم الاجتماعي بالمغرب. يندرج موضوع بحثنا في إطار تاريخي ارتبط بأفول نجم الدولة المرينية وصعود الدولة السعدية، نظرًا للتغيرات العميقة التي حدثت في الضفة الجنوبية للمتوسط، وما عرفه المغرب من تحولات عميقة خاصةً على المستوى الداخلي، منها معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، وازدهار صناعة السكر ودور هذه العوامل في وجود أعداد كبيرة من العبيد في المغرب. فمن خلال تبنينا للمنهج التاريخي الوصفي التقليدي، فإننا سعينا إلى رصد تطور ظاهرة العبودية بالمغرب خلال الفترة الحديثة، للبحث في وضعية عبيد البوادي بالمغرب، وفق رؤية شمولية تأخذ بعين الاعتبار الإحاطة بالظاهرة وتتبع آليات وجود العبيد، وأدوارهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين.

كلمات مفتاحية:

البوادي المغربية؛ المجتمع المغربي؛ العبيد السود؛ الدولة السعدية؛ تاريخ المهمشين.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.265902.1102

مُقدِّمَةٌ

يسعى هذا البحث الموسوم بـ "**العبيد في تاريخ المغرب: مساهمة في دراسة عبيد البوادي ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر**" إلى محاولة لمنح مساحة تحت الشمس لفصل من فصول التاريخ المنسي للهامش والمهمش بالمغرب الحديث، فإننا نطمح إلى إعادة موضوع العبودية إلى دائرة الاهتمام، من خلال البحث في الأدوار الاقتصادية والاجتماعية لفئة عبيد القرى بالمغرب ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر

عشر الميلادي، الذين قبعوا في أسفل الهرم الاجتماعي بالمغرب، فباستثناء بعض الدراسات التي أنجزت حول مساهمتهم في المجال العسكري خاصةً في تجربتي المنصور السعدي والمولى إسماعيل؛ ومَرَدُّ ذلك يعود إلى مجموعة من الصعاب التي تعترض من يريد خوض هذا المغامرة البحثية، وفي مقدمتها قلة المصادر وندرتها، التي يفسرها – غالبًا - عدم اهتمام "المجتمع الثقافي" (من كتاب ومؤرخين وغيرهم...)، بهذه الشريحة العريضة من المجتمع، بفعل النظرة الدونية التي كانت تؤثث الوجدان الجمعي العام، وهكذا تم إسقاط كثير من القضايا والموضوعات من حقل الكتابة التاريخية، ومنها تاريخ الاقتصاد والأسعار والفئات المهمشة... التي أرخى عليها الإهمال ستاره، قبل أن يبتلعها النسيان، فغاب معها تاريخ فئات اجتماعية عريضة أريد لها أن تقبع في زاوية المنسي من الذاكرة الجمعية، فأصبح لا يتم استحضارها عادة إلا ملتبسة داخل متن يراد له – من حيث الأصل - أن يعالج قضية سياسية أو فقهية أو عسكرية... فتندس في ثنايا الخطاب، رغم الأدوار الكبيرة التي قامت بها هذه الشرائح الاجتماعية على جميع المستويات.

تقدّم المعطيات السالفة الذكر لمحة موجزة عن عامل موضوعي رئيس كان دافعا لخوض غمار البحث في هذا الموضوع. يتعلق الأمر بغياب يكاد يكون كلي لأي دراسة تناولت تاريخ عبيد البوادي، كموضوع وكتيمة مستقلة في تاريخ المغرب خلال الفترة الحديثة حسب علمنا. أمّا عن العوامل الذاتية المحدِّدة لهذا الاختيار، فألخصها في عامل واحد هو:

الرغبة في خوض معترك البحث في تاريخ الفئات المهمشة، وهو اهتمام ذاتي بفئة اجتماعية استضعفت في الأرض، وباعتبار أن البحث في قضية الاستعباد هو بحث في قضية الإنسانية.

أما على مستوى الحقبة الزمنية للبحث وإطاره الجغرافي، فيندرج موضوع بحثنا في إطار تاريخي ارتبط بأفول نجم الدولة المرينية وصعود الدولة السعدية، نظرا للتغيرات العميقة التي حدثت في الضفة الجنوبية للمتوسط، وما عرفه المغرب من تحولات مهمة على وجه الخصوص الجانب العسكري والاقتصادي، من قبيل معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، ورغبة السلطان السعدي تقوية المؤسسة العسكرية عبر إدماج عناصر دخيلة عن المجتمع المغربي سواء العلوج أو العبيد السود. كما ساهم ازدهار صناعة السكر والحاجة إلى اليد العاملة في وجود أعداد كبيرة من العبيد في المغرب.

ومن جهة أخرى، نبرر أسباب اختيارنا لنهاية القرن الثامن عشر الميلادي كسقف زمني تنتهي عنده دراستنا بنهاية تجربة السلطان المولى إسماعيل ودخول البلاد أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧-١٧٥٧م) وما أعقب هذه الفترة من تفكك جيش عبيد البخاري وتفرقه في أصقاع المغرب وبواديه. ومن البديهي كذلك الحديث عن الإطار الجغرافي لأطروحتنا، حيث رأينا بعد الاطلاع على الدراسات السابقة في الموضوع، أن جلها تطرق للعبيد داخل المجال الحضري، وبالتالي ومن أجل إعطاء نوع من الجدة والراهنية لبحثنا فقد ارتأينا أن نشتغل على موضوع عبيد البوادي بالمغرب خلال الفترة الحديثة.

الحقبة الزمنية والإطار الجغرافي للبحث

يندرج موضوع بحثنا في إطار تاريخي ارتبط بأفول نجم الدولة المرينية وصعود الدولة السعدية، نظرًا للتغيرات العميقة التي حدثت في الضفة الجنوبية للمتوسط، وما عرفه المغرب من تحولات عميقة خاصةً على المستوى الداخلي، منها معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، وازدهار صناعة السكر ودور هذه العوامل في وجود أعداد كبيرة من العبيد في المغرب.

ومن جهة أخرى، نبرر أسباب اختيارنا لنهاية القرن الثامن عشر الميلادي كسقف زمني تتوقف عنده دراستنا لأسباب معروفة لدى المختصين من المؤرخين باعتبارها فترة نهاية العصر الحديث وبداية الحقبة المعاصرة، كما نشير أن الفترة التي أعقبت القرن الثامن عشر الميلادي ظلت فئة العبيد حاضرة وبقوة في المجتمع المغربي، وعلى حد علمنا فإن هذه الفئة حظيت بالبحث والدراسة خلال القرن التاسع عشر الميلادي التي مارست نوعًا من الجاذبية على المؤرخين المغاربة كما يذهب إلى ذلك المؤرخ عبد الأحد السبتي[1].

كما نشير إلى أن الحدود الزمنية للحقبة التاريخية الخاصة بأطروحتنا تقع بين تاريخين فاصلين، أي وصول الدولة السعدية للحكم وما ارتبط بها في مسألة وجود العبيد، خاصة نتائج معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، اختيارنا لنهاية القرن الثامن عشر الميلادي كسقف زمني تتوقف عنده دراستنا باعتبارها فترة نهاية أزمة الثلاثين سنة التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل (١٧٢٧-١٧٥٧م) وما أعقب هذه الفترة من

تفكك جيش عبيد البخاري وتفرقه في أصقاع المغرب وبواديه.

ومن البديهي كذلك الحديث عن الإطار الجغرافي لأطروحتنا، حيث رأينا بعد الاطلاع على الدراسات السابقة في الموضوع، أن جلها تطرق للعبيد داخل المجال الحضري، وبالتالي ومن أجل إعطاء نوع من الجدة والراهنية للبحث فقد ارتأينا أن نشتغل على موضوع عبيد البوادي بالمغرب خلال الفترة الحديثة.

العبيد والأسرى: الفئة المعنية بالبحث

بحثنا هذا سينصب حول فئة العبيد السود بالدرجة الأولى، مصادر جلب العبيد وأهم الروافد، الأدوار التي شغلتها هذه الفئة بالبوادي المغربية خلال الفترة الحديثة، طبيعة العلاقة والأنساق التي جمعت هذه الفئة بمحيطهم الاجتماعي. وبدرجة أقل بعض الأعداد القليلة جدا للأسرى الأوربيين الذين رمت بهم الأقدار إلى الاشتغال بمجال البوادي وعددهم قليل جدًا.

وقد ارتأينا تخصيص هذه الفقرة حتى نرفع أي لبس حول تداخل مفهوم العبد مع باقي مظاهر الاسترقاق، خصوصا مع الأسرى الأوربيين والعديد منهم تحول إلى عبد، وقد اطلعنا على العديد من الدراسات والمصادر التاريخية حول الأسر والأسرى في نفس الفترة المدروسة لكن الذي وجدنا هو سرعة الافتداء للأسرى الأوربيين وهناك العديد من الجمعيات التي نشطت في هذا الباب. وثانيا هو أننا نشتغل على مجال البوادي ونادرا ما وجدنا أن هناك أسرى في البوادي نظرا لغلاء أسعار الأسرى الأوربيين، وفي هذا السياق نذكر إشارة نوازلية مهمة وردت عند أبي زكريا يحي السراج فقد سئل **"عن أربعة مساكين كانوا شركاء على السواء في مملوك نصراني"**[٣].

فقد تركزت ملكية الأسرى الأوربيين بيد السلاطين أولاً[٣]، ورؤساء الجهاد البحري او القراصنة وعدد من التجار الكبار بمن فيهم اليهود، أما بخصوص بيع الأسرى فيبدو أنه اقتصر على المدن وبعض أحوازها، بحيث لم نقف على ما يثبت بيعهم بالبوادي، وذلك حتى يسهل تحريرهم متى توفرت فديتهم، لأن الهدف الأساسي من شراء الأسرى هو تحقيق ربح مادي خلال عملية الافتداء، كما أن القائمين بالشراء كانوا ممن يتوفرن على رؤوس أموال مهمة تمكنهم من تغطية مصاريف الأسرى والمدد الضرورية قبل افتدائهم.

في هذا الصدد ورد نص مهم في رحلة الأسير طوماس بيلو (*Thomas pellow*) حول انتقال الأسرى من ملكية القراصنة والتجار إلى ملكية السلطان: "بعد حوالي ثمان ساعات وصلنا إلى القصر الفخم، كان علينا أن نترك دوابنا ونخلع نعالنا لندخل حفاة الأقدام أولا عبر باب منصور العلوج (...) حيث يتواجد السلطان العجوز[٤]، وقام القراصنة بتسليمنا إليه"[٥]. ونفس الإشارة وردت عند الأسير جيرمان مويط في حديثه عن رحلة الأسر التي قادته من عرض البحر إلى سلا ومن تم في رحلة طويلة وشاقة على مكناس مرورا بحواضر وبوادي المغرب وصلال إلى قصر السلطان المولى إسماعيل بمدينة مكناس.

ما يمكن أن نستشفه من هذه الإشارات، هو حرص السلاطين على تملك الأسرى المسيحيين البيض، فانطلاقا من سنة ١٦٧٢ أصبح العبيد والأسرى في ملكية السلاطين، وهم من يقررون في مصائرهم[٦]. كما إن السلاطين خصصوا أماكن للأسرى داخل القصور، بهدف الحصول على فدية، أو إدخالهم في عملية لتبادل الأسرى، أو الضغط بهم على الدول التي ينتمون إليها بهدف الحصول على امتيازات سياسية أو اقتصادية. وبالتالي فأماكن تمركز الأسرى والعبيد البيض كانت هي المدن والحواضر، وتشير المصادر المغربية أن المهن التي امتهنوها هي حرف ومهن جلها يمارس داخل المدن. يقول ابن زيدان في هذا الباب: "(الأسرى) منهم الرخامون، والنقاشون، والحجارون، والحدادون، والبناؤون، والنجارون والزواقون والمهندسون والمنجمون والأطباء"[٧]. ويضف أنه كان في (سجون السلطان مولاي إسماعيل) من أهل الجرائم العظيمة كالسارق والقاطع والقاتل نحو الثلاثين ألفا كلها تقيل بالخدمة مع أسارى الكفار ويبيتون بالسجون والدهاليز تحت الأرض"[٨].

إشكالية البحث وقضاياه

ينطلق هذا البحث من إشكالية محورية، هي كون الحديث عن العبيد في المظان التقليدية ارتبط في الغالب بالحملات العسكرية أو وصف للقصور وبيوت الأغنياء وأعيان المدن... وقلما يقترن بإشارات إلى الموضوعات الاقتصادية والحرفية، وهذا الفقر على مستوى المادة المصدرية يحيل على عوز شديد في الكتابة عن عبيد المدن، هذه الفئة التي حظيت بأهمية محورية في هذه الكتابات؛ فإذا كان الحال بالنسبة لعبيد الحواضر والمدن فلا شك أن واقع الحال سيكون أسوأ بالنسبة لعبيد الأرياف والبوادي!

تجمع أغلب المصادر التاريخية أن التهميش الذي طال العبيد لم يكن حائلا دون اضطلاع هذه الفئات بأدوار مهمة في ميادين شتى، من قبيل الجيش والإدارة والخدمة في القصور. وفي بيئات مختلفة،

في المدن والبوادي، وأثروا وتأثروا بالأوضاع العامة للمغرب عبر فترات مختلفة من تاريخه. **فماذا عن أدوار وأوضاع العبيد في البوادي والقرى بالمغرب ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين؟**

إن مثل هذا النوع من الأسئلة يستمد مشروعيته من أهمية الأدوار المختلفة التي اضطلعت بها فئة العبيد خلال الفترة الحديثة من تاريخ المغرب؛ وهو أمر لا يجادل فيه اثنان عندما يتعلق الأمر بمناقشة أدوار العبيد في تاريخ الدولة السعدية والعلوية، على المستوى العسكري؛ **لكن ماذا عن هذه الأدوار في المجالين الاقتصادي والاجتماعي بالبوادي المغربية؟** لا نهدف إلى ابتكار في هذا الموضوع، ولا نعتقد أننا قد توصلنا إلى ذلك؛ ولكن الغاية التي أردناها بالأساس هي إعطاء قراءة جديدة لفئة من العبيد من منطلق إشكالية الهامش والمهمش؛ أي أدوار العبيد وأوضاعهم في مجال غير المجال المديني الحضري، مجال البوادي.

من هنا تبدى لي أنه من الممكن أن يكون في هذه الدراسة بعض الفائدة، إذا ماهي استطاعت المساهمة في نفض الغبار عن فئة عبيد البوادي.

أما عن القضايا التي يتغيا هذا البحث الإجابة عنها، فقد حددناها في ثلاثة مسائل غاية في الأهمية. تتمحور **القضية الأولى** في الضرورة الملحة للعبيد بالمغرب، مع تباين روافد ومصادر العبيد خلال نفس الفترة، فإذا كانت الحرب والتجارة والهدايا قد شكلت الروافد الرئيسية لجلب العبيد خلال القرنين ١٥ و١٦م، فإن تراجع هذه الروافد التقليدية للعبيد خلال القرنين ١٧ و١٨م وحاجة المولى إسماعيل للعبيد جعلته يسن سياسة تجميع العبيد من كل مدن وبوادي المغرب قصد تشكيل "جيش عبيد البخاري". وما يهمنا نحن في أطروحتنا بالأساس من سياسة المولى إسماعيل في إدماج العبيد في الجيش. هو **أين كان هؤلاء العبيد قبل الجمع؟ وما الأدوار التي أسندت لهم في البوادي؟ وإلى أين رمت بهم الأقدار بعدما تفكك جيش عبيد البخاري عقب وفاة المولى إسماعيل؟**

أما **القضية الثانية** تنطلق من طبيعة الأدوار الذي اضطلع بها العبيد بالبوادي، خلال الفترة المدروسة، **وهل ارتبط وجود العبيد بالقرى المغربية بأعمال موسمية؟ أم بممارسة حرف وأنشطة دائمة؟ أم أنهم كانوا أداة رئيسية ضمن الأنساق الاجتماعية بالبوادي؟ وهل أصبح من لا حرفة له من العبيد في البوادي المغربية جنديًا محاربًا؟**

في حين تتمحور **القضية الثالثة** حول الأحوال الشخصية للعبيد بالمغرب، الأسرة والحياة اليومية لهذه الفئة، **كيف عاشت هذه الشريحة من المجتمع حياتها الخاصة؟ وهل كان حرص المخزن من تزويج العبيد هو ضمان استمرار نسل هذه الفئة والتكثير من عددها لضمان أجيال من العبيد الفتية والشابة؟ أم لتوفير أعداد مهمة من الجند تساهم في ضمان الأمن الداخلي، وبذلك ضمان لاستمرارية فعالية سلطة المخزن؟**

وإننا إذ نطرح هذا الموضوع لا ندعي فيه الوصول إلى كل المبتغى، بل يعتريه النقص لا محالة مادام يشكل محاولة ومقاربة موضوع متشعب ومحير ومعقد، تتداخل فيه عدة جوانب، عقدية وثقافية ذهنية واقتصادية واجتماعية، ولكن في نفس الوقت يفتح شهية البحث والتنقيب لإماطة اللثام عن مجموعة من الجوانب التي تهم مجتمع عبيد البوادي بالمغرب خلال الفترة الحديثة.

منهجية البحث

تسلحنا بالمنهج التاريخي الوصفي التقليدي، فعلى الرغم من تعدد الزوايا التي يمكن النظر بها ومنها إلى موضوع العبيد، وعبيد البوادي على وجه الخصوص، والصعوبة التي تكتنف سبر أغوار هذا الموضوع، فإنني لا أدعي القدرة على الانفتاح على تلك الطفرة المنهجية في مجال دراسة العلوم الإنسانية ومحاولة توظيفها في إنجاز هذه الأطروحة.

فمن خلال تبنينا **للمنهج التاريخي الوصفي التقليدي**، فإننا سعينا إلى رصد تطور ظاهرة العبودية بالمغرب خلال الفترة الحديثة، للبحث في وضعية عبيد البوادي بالمغرب، وفق رؤية شمولية تأخذ بعين الاعتبار الإحاطة بالظاهرة وتتبع آليات وجود العبيد، وأدوارهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين.

وفضلاً عن هذا المنهج، نزعم اعتمادنا على مناهج أخرى – وإن بشكل محدود- مثل أدوات **المنهج الاجتماعي** فيما يتعلق بوضعية عبيد البوادي وأنساق العلاقات الاجتماعية بباقي فئات المجتمع المغربي. وكذلك أدوات **المنهج الإحصائي** كمحاولة لضبط أعداد العبيد انطلاقا من أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلادي، بناء على ما وفرته لنا سجلات ودفاتر العبيد.

ولم نجد غضاضة في اتباع **المنهج الوصفي** في إبراز السمات العامة لعبيد البوادي اعتمادًا على المادة الجديدة التي تم العثور عليها والإرتكان إليها

بشيء من الإسهاب والإطالة وإن تطلب الأمر منا ذكر الأحداث والاقتباس والأرقام، وأحيانا الإفراط فيها نظرا لطبيعة الموضوع.

كما اعتمدنا بعض أدوات **المنهج المقارن** خاصة فيما يتعلق بوضعية العبيد خلال الفترة الوسيطية والحديثة التي أحدثت نقاشا واسعا خاصة في طبيعة العلاقة التي جمعت مجتمع العبيد بمجتمع الأحرار، وكذلك بعض الرموز الاجتماعية، (أسماء ولباس ومسكن العبيد ...).

تصميم البحث

وأما تصميم البحث فقد خلصنا إليه بعد النظر والتأمل، فرتبناه تبعا في أربعة أبواب: صدرته بمقدمة مبينة وأردفته بخاتمة ملخصة ويمكن إجمال أهم محاور البحث فيما يلي:

خصصت المقدمة للتعريف بالموضوع وبيان أهميته، والأسباب الكامنة وراء الاختيار والانتخاب، مع ذكر للدراسات السابقة، والصعوبات والعقبات التي واجهت عملية البحث، والمنهجية المعتمدة، وخطة البحث، وإشكاليته. فاحتوت الخطة بذلك على أربعة أبواب و**مدخل** تطرقت فيه لمجموعة من المفاهيم المرتبطة بالعبودية، من قبيل العبد، المملوك، والوصيف، والرقيق، والقن، والحرطاني. حيث وقفنا على مفهوم العبد من الناحية اللغوية المعجمية، إضافة إلى تعاريف دينية وكيف نظَرت ونظَّرت لموضوع العبيد، كما تطرقنا لهذه المفاهيم من منطلق وسياق تاريخيين، ومحاولة الوقوف على الدلالات والوظائف الخاصة بهذه الألقاب.

اعتنيت في **الباب الأول** ببيان أهم مصادر وروافد العبيد في المغرب خلال الفترة الحديثة، من خلال التطرق لأهم مصادر العبيد الرئيسية والثانوية، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والشق الثاني من هذا الباب خصصناه لعملية جمع العبيد من مختلف أنحاء المغرب، مع التركيز أكثر على البوادي وأحواز المدن، ومحاولة تقديم إحصائيات في هذا الباب.

الباب الثاني؛ تعرضنا فيه للبوادي المغربية خلال الفترة الحديثة، ووقفنا على أهم ما ميز التراتبية الاجتماعية، ومؤشرات التمايز الاجتماعي، ومعرفة موضع وموقع العبيد ضمن هذه التراتبية. هذا من جهة، ثم بحثنا في ثنائية حسن المعاملة أحيانا والسيئة أحيانا أخرى، وختمنا هذا الباب بالتطرق لأهم الوظائف والأعمال التي أسندت لهذه الفئة ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

في **الباب الثالث**؛ بسطنا الحياة اليومية للعبيد بالبوادي المغربية من السوق إلى السيد أو المالك، مع التطرق لعملية البيع وما يرافقها من طقوس خاصة بالبيع والشراء. ثم بحثنا في الرموز الاجتماعية للعبيد من قبيل "اللباس، الأسماء، والسكن".

أما **الباب الرابع**، فقد عالجت فيه الوضعية الاجتماعية لمجتمع العبيد بالبوادي، وذلك من خلال التطرق لقضايا تخص الحياة اليومية الخاصة، مع عرض للحياة الأسرية لمجتمع عبيد البوادي، بالتركيز على الزواج وترتيباته والإنجاب والسكن، وكل ما يخص حياة هذه الفئة.

لنختم هذه الدراسة بخاتمة ضمناها بعض الخلاصات والاستنتاجات، مدبجة ببعض الملاحظات، وبيان مدى مساهمتنا في معالجة ودراسة أهم مصادر وروافد العبيد بالمغرب خلال الفترة الحديثة، والوضعية الاقتصادية والاجتماعية لهذه الفئة بالبوادي المغربية، وحياتهم اليومية وكل ما يتعلق بأسرة العبيد.

ولمعالجة موضوعنا، لجأنا إلى اعتماد خرائط توضيحية أنجزناها بناء على ما وفرته لنا المصادر المختلفة من إشارات ومعطيات، وبعض الجداول المفصلة والمختصرة، والرسوم المبيانية، قصد التمكن والإلمام بكل المعطيات التي تخص هذه الفئة.

خلاصات البحث وآفاقه

ولئن كانت مرحلة البحث والتركيب قد بسطت فيها بالتفصيل النتائج والخلاصات الخاصة بكل باب وبكل قضية في البحث، وهو ما يضيق المقام عن عرضها هنا، فإنّنا نكتفي فيما يلي بتسجيل بعض النتائج العامة التي رأينا أنّها تجيب بصورة أو بأخرى عن أطروحة البحث:

لقد تبين لنا الحضور القوي **للعبيد المجلوب** خلال الفترة السعدية، وهو العبيد الذي تم توريده وجلبه من أوطان أخرى، إما عن طريق التجارة أو الحرب أو الهدايا. وقد وقفنا على بداية تراجع حضور هذا النوع من العبيد بالمغرب مع بداية تفكك الدولة السعدية، وتنامي الحروب الداخلية، وانتشار الأمراض والأوبئة، وتراجع التجارة الصحراوية. كل هذه العوامل جعلت المولى إسماعيل "يستثمر" في نوع جديد من العبيد، هو **"العبيد المولد"** الذي نشأ وترعرع بالمغرب، وتشرب عادات وتقاليد وأعراف البلد. وكان منتشرا في كل أصقاع بوادي المغرب وأحواز المدن.

يمكن ربط الدوافع الأساسية في تجميع عبيد البوادي ودمجهم في جيش عبيد البخاري على عهد السلطان المولى إسماعيل، برغبة هذا الأخير في

احتواء القبائل ومختلف مكونات المجتمع المغربي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن فهم التجاء المخزن إلى تجميع عبيد البوادي وبناء القصبات والقلاع في جل المجال المغربي، إلا بالبحث في الوضع الاقتصادي للبلاد حيث كانت رغبة المخزن ملحة في توفير قوة عسكرية قادرة على تحصيل مداخيل قارة لبيت المال، في الوقت الذي تعطلت فيه تجارة العبور بعد وصول الأوربيين إلى السواحل الأطلسية لدول إفريقية الغربية. وبالتالي فسعي المولى إسماعيل إلى تكوين جيش من العبيد لم يكن نتيجة لتحديث مؤسسة من مؤسسات الدولة بقدر ما كانت عنصر ضبط للقبائل المتنمرة.

ومع وفاة السلطان المولى إسماعيل دخلت البلاد في أزمة شاملة عصفت أولا بتفكك مؤسسة العبيد والانتشار في البوادي وأحواز المدن، وثانيا عودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل تشكل جيش العبيد، حيث انتهى الصراع بانتصار الواقع الاجتماعي على القرار السياسي، وتوقفت تجربة "العصبية الممتازة" أو "العصبية السوداء" وانغلق باب الترقي الاجتماعي من جديد".

من هذا المنطلق فقد سجلنا حضور بارز كمي وكيفي للعبيد بالبوادي في مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، فعلى المستوى الاقتصادي كان حضور العبيد مهمًا ورئيسيًا خاصةً في المجال الفلاحي وامتهان بعض الحرف والاشتغال في التجارة وباقي الحرف اليدوية الأخرى، التي كانت سائدة آنذاك، كما اشتغل بعض العبيد والإماء في منازل أسيادهم، فقد أسندت لهم أنشطة مختلفة يقومون بها داخل البيت أو خارجه. وخلصنا أن هذه الفئة تعرضت لأبشع أنواع القهر الاقتصادي.

وعلى المستوى الاجتماعي، وانطلاقًا مما وفرته لنا سجلات العبيد من أرقام ومؤشرات عددية، حتى وإن كانت دراسة وتحليل الظواهر الديموغرافية لفئة معينة تقتضي وتستوجب إحصاءات دقيقة حول الساكنة أو فئة ما، تطورها، تفيئها حسب الجنس والعمر. لكن هذه المؤشرات والأعداد من الصعب تتبعها عبر مختلف مراحل تاريخ المغرب، بسبب انعدام التأطير الإداري. وفي غيابها يصعب استخدام أدوات ومناهج التحليل الديموغرافي.

نشير هنا إلى أن النتائج المتوصل إليها في محاولتنا لاستغلال أدوات المقاربة الديموغرافية في الباب الرابع من البحث، تبقى قابلة للنقاش والتطور لترقى إلى المستوى الحقيقي للدراسات الديموغرافية، خاصة إذا تمت الإحاطة بكل الدواوين الخاصة بالعبيد. لذا يبقى الأمل معقودًا على حقل الديموغرافية التاريخية لتقديم دراسة قيمة لفئة العبيد خلال الفترة الحديثة من تاريخ المغرب، خاصةً إذا ما تم الحصول على المعطيات الإحصائية الضرورية التي تخص فئة العبيد، لتكون المقاربة الديموغرافية قابلة للقياس والحكم عنها عن بينة.

وختامًا لقد كان "عيب" عبيد البوادي، هو كونهم فاعلين بدون صوت، شأنهم في ذلك شأن كل الفئات المهمشة التي قبعت أسفل الهرم الاجتماعي. لم يكتبوا أو يدونوا تاريخهم، إضافة إلى كونهم عاشوا ضمن مجتمع البوادي، الذي لا يكتب إلا ناذرا، ولا يؤلف إلا قليلاً، وفي مواضيع وقضايا تكاد تكون محصورة، ومرد ذلك إلى النظرة الدونية لفئة العبيد فبالأحرى تدوين تاريخهم والكتابة في قضاياهم.

إن مختلف تلك الاستنتاجات السابقة الذكر مثلت بالنسبة لنا خطوطًا عريضة حاولنا من خلالها تقديم بعض ما أفادتنا به مصادر فترتنا وتبقى الدراسات المفصلة والمركزة أكثر على مصادر جديدة أو مقاربات متجددة هي السبيل لإنارة الباحثين في موضوع الفئات الاجتماعية.

الإحالات المرجعية:

(١) السبتي، عبد الأحد، **التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية**، ضمن كتاب **البحث التاريخي في المغرب حصيلة وتقويم**. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٤، ١٩٨٩، ص ٤٣-٥٧.

(٢) الزياتي، عبد العزيز بن حسن المهدي، **الجواهر المختارة، فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، خ. ع، ج٢، ص٦٢.

(3) tellat Abdelkader, **L'esclavage au Maroc entre Ahmed al-MANSUR AL Saadi et Mulay Ismail al-Alawi (XVI°- XVIII° siècles)**, 2 éd ,Impression Imarsi, 2007. P.236 – 237 – 238 – 239.

(٤) نعت الأسير السلطان مولاي إسماعيل بـ"**العجوز**" لأن أسر طوماس بيلو تم في سنة ١٧١٥، والسلطان كان قد ولد سنة ١٦٤٥ أي أنه تجاوز السبعين سنة بقليل.

(5) Morsy Magali, «la **Relation de Thomas pellow, une lecture du Maroc au 18e siècle »**. Éd. Recherche sur les civilisations. Paris 1983. P.٧٣.

(6) tellat Abdelkader, **«L'esclavage au Maroc entre Ahmed al-MANSUR AL Saadi et Mulay Ismail al-Alawi (XVI°- XVIII° siècles)** » ,op.cit, pp 238-239 .

(٧) ابن زيدان، عبد الرحمن، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية الرباط، ط الثانية ١٩٩٠، ج٢، ص ١٦٠.

(٨) نفسه.